تأثير العرب والعربية
في الفلاحة الأوربية (١)

لم يعالج مؤرخو الحضارة الغربيون ما كان للعرب ، في القرون الوسطى ، من تأثير في فلاحة الأقوام الأوربية ، بقدر معالجتهم لما كان لهم من تأثير في بث الفلسفة وعلوم الطب والرياضة والفلك والفيزياء والجغرافيا وغيرها في الأقوام المذكورة . ولعل سبب ذلك الإهمال ما هو معروف من أن الفلاحة لدى جميع القدماء من كلدانيين ومصريين ويونانيين ورومانيين وعرب قد قامت كلها على الملاحظات والتجارب فحسب ، وأن تقدم الفلاحة بالعلوم لم يحصل إلا بعد النهضة الأوربية ، أي بعد كشف النقاب عن المعلومات الكيمياوية والبيولوجية الحديثة التي كان يجهلها القدماء ، فهؤلاء كانوا يجهلون الفسيولوجية النباتية من

---

(١) بحث ألقي في مؤتمر مجمع اللغة العربية المعقود في القاهرة في ١٦ من كانون الثاني « يناير » سنة ١٩٦١ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

من الوجهة الكيميائية ، ويجهلون أصول الكيمياء الزراعية وكيفية اغتذاء النبات بالعناصر الغذائية ، ولا سيما بالأملاح المعدنية ، ويجهلون أيضاً علل حصول الاختمار ، وتركيب الأتربة والأسمدة والفلات والأثمار ، وحياة الحشرات والجراثيم والفطور المجهرية التي تولد أمراض الزروع الخ . ولكن كون الفلاحة القديمة لم تكن ترتكز على دقائق العلوم الحديثة لا يحول دون البحث عما كان لأجدادنا من فضل على تقدم فن الفلاحة في أيامهم السالفة . وسنحاول بيان ذلك في هذا البحث الموجز :

إذا ألقينا نظرة على جغرافية الأقطار العربية ، سواء في آسية أو في إفريقية ، نجد أنها خاضعة لإقليمين مختلفتين : الأولى في جنوبي جزيرة العرب (اليمن ، حضرموت ، عمان) وفي السودان حيث تجلب الريح الموسمية الهندية في الصيف أمطاراً غزيرة تعين على زراعة عدد من النباتات المدارية كالبن والأنبج (منجة) والنخل والقات والموز والنارجيل والقشدة والبَبّايا وغيرها كثير ، والثانية إقليمية البحر الأبيض المتوسط التي تسود سائر الأقطار العربية ، وهي تعرف بشتاء بارد مطير ، وبصيف حار لا مطر فيه . وكلما بعدت الأرض عن ذلك البحر قلت أمطارها ، حتى إن بعض القفار في جزيرة العرب وفي الصحراء الكبرى الإفريقيه لا تمطر سماؤها مطلقاً .

وهذا النظام الإقليمي الطريف يقسم مناطق البلاد العربية قسمين : الأول وهو المهم بتراوح ارتفاع أمطاره السنوية بين ٢٥٠ و ١٠٠٠ ميليمتر فتكون تلك الأمطار كافية للزراعة إما عَذياً على المطر ، وإما سقياً بالأنهار والينابيع والقنوات التي تتكون من مياه الأمطار .

أما القسم الثاني فأمطاره السنوية بتراوح ارتفاعها بين ٥٠ و ١٥٠ ميليمتراً . وهذا المقدار لا يكفي للزراعة اقتصادياً ، ولكنه يُنبت نباتات برية شتى تتألف منها مراعي بقاعٍ واسعة في جزيرة العرب وبادية الشام والعراق والأقطار العربية الإفريقية .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وليس من المعقول ترك نباتات هذه المراعي تنبت وتنمو ، ثم تصوّح وتذروها الرياح ، من دون الاستفادة منها . ولذلك كانت الأمة العربية وما زالت مؤلفة من فريقين اجتماعيين : فريق الرعاة أي القبائل البدوية المتنقلة التي تعيش على تربية الخيل والأنعام في المراعي والمنتجعات ، وفريق الحضر أي سكان القرى والأرياف العاملين في الفلاحة ، وسكان البلدان والمدن العاملين في الصناعة والتجارة ووسائل الحضارة .

ويتبين من ذلك أن البداوة التي يعيرنا بها بعض جهلاء الغربيين أو متعصبيهم هي ضرورة فرضتها علينا طبيعة الإقليم الجغرافي ، ومع هذا ليس التنقل انتجاعاً للكلأ وقفاً علينا ، بل له أمثال في أصقاع كثيرة من الأرض ، حتى لدى أرقى الشعوب الأوربية والأمريكية .

والقبائل البدوية لا تستعصي على التحضر ، فحيثما تستطيع الإفادة من مياه الأمطار أو من المياه الجوفية سرعان ما تنتقل من عيشة البداوة الى عيشة الحضارة المستقرة ، من دون أن تنسى أنسابها القبلية . وفي تاريخ اليمن أسطع دليل على ذلك . فمدنية القبائل اليمنية في التاريخ القديم قد قامت خاصةً على إنشاء السدود العظام ، وإسقاء الأرض وزراعتها زراعة كثيفة .

وعندما ظهر الإسلام ، وامتدت فتوحاته ، اقتصرت القبائل العربية ، بادئ ذي بدء على الجهاد ، ولكنها ما عتمت أن امتزجت هي والآراميون في الشام والعراق ، وهي والأقباط في مصر ، وهي والبربر في الأقطار المغربية (وجميعهم من سلالة واحدة وهي السلالة السامية أي العربية القديمة) ، وجعل الجميع يستغلون شواسع الأرضين في الأقطار العربية الحاضرة ، وفي الأندلس الإسلامية الماضية . وكان من الطبيعي أن تتتبع الشعوب العربية والمتعربة في الإسلام الأعمال والتقاليد الزراعية التي كان يتبعها الأقباط في مصر ، والآراميون والكلدانيون

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

من قبلُ في الشام والعراق ، وهي أعمال وتقاليد قديمة يتوارثها الفلاحون جيلاً بعد جيل . وقد بُنيت ، كما قلت ، على التجارب والمشاهدات طيلة قرون عديدة ، فكان عرب القرون الوسطى مثلاً يعرفون بالتجارب قواعد العلم الذي نسميه اليوم زراعة الأراضي اليابسة ، أي زراعة الأعذاء والبُخوس على أمطار يتراوح ارتفاعها سنوياً بين ٢٥٠ و ٥٠٠ ميليمتر . ولكنهم ما كانوا يستطيعون تعليل تلك القواعد علمياً . وكانوا يعرفون أيضاً بالمشاهدة فوائد الدورة الزراعية وضرورة تعاقب الزروع في الأرض ، ويعرفون أن القطانيّ (كالفول والبيقية والجلبان والعدس) تزيد خصب التربة ، وأن الحبوب والقنب والكتان والقطن وغيرها تنهكها ، ولكنهم جهلوا تعليل ذلك .

وكانوا يعرفون ويزرعون معظم النباتات الزراعية التي نزرعها في زمننا هذا . ولم يجهلوا إلا النباتات التي نُقلت الينا بعد كشف النقاب عن أمريكة كالتبغ والذرة الصفراء (الذرة الشامية) والبطاطس والبنادورى (قوطة) والقشدة والقوافة ، أو التي نُقلت حديثاً من أوقيانوسيا والشرق الأقصى كالمندرين وليمون الجنة (غريب فروت) والكاكي وزعرور اليابان (بشملة ، ابكي دنيا) وغيرها .

والعرب هم الذين نقلوا الأترج والنارنج والليمون من الهند الى بلاد العرب ، قال المسعودي في مروج الذهب (طبعة باريس ج ٢ ص ٤٣٨) : « ... وكذلك شجر النارنج والأترج المدور جُلب من أرض الهند بعد الثلاثمائة ، فزرع بعُمان ، ثم نُقل الى البصرة والعراق والشام ، حتى كثر في دور الناس بطرسوس وغيرها من الثغر الشامي وأنطاكية وساحل الشام وفلسطين ومصر ، وما كان يُعهد ، ولا يعرف الخ . »

وقال أيضاً (ج ٨ ص ٣٣٦) : « وكان للقاهرة في بعض الصحون بستان نحو من جريب قد غُرس فيه النارنج وحُمل اليه من البصرة وعُمان ، مما حمل من أرض الهند » .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وذكر بعض العلماء الغربيين ، وأخص منهم النباتي السويسري المشهور دو كندول De Candolle ، صاحب كتاب مهد النباتات الزراعيه ، أن العرب نقلت الى سواحل البحر المتوسط زراعة القطن والمُصّان أي قصب السكر والمشمش والخوخ (الدُّراقن) والرز والخروب والبطيخ الأخضر أو الهندي (البطيخ في مصر) والباذنجان وغيرها . ومعنى ذلك أن الأوربيين اقتبسوا زراعتها منهم ، إما في صقلية ، أو في الأندلس ، أو في عودتهم الى بلادهم زمن الحروب الصليبية .

ومن الأدلة على تأثير العرب في نشر النباتات الزراعية أن اللغة الفرنسية قد اقتبست من لغتنا أسماء عدد غير قليل من النباتات المذكورة . وها كم بعضها مرتباً على حروف المعجم :

Arganier , Artichaut , Aubergine , Azerolier , Caféier , Caroubier , Carthame , Carvi , Colocase , Cotonnier , Estragon , Henné , Jasmin , Ketmie , Lablab , Limonier , Nénuphar, Oranger, Pastèque , Pistachier , Safran , Sumac , Tamarinier .

وهذه الأسماء الفرنسية مقتبسة من الأسماء العربية الآتية على التتابع : أرغان ، حرشف ، باذنجان ، زعرور ، قهوة (البُنّ) ، خروب ، قرطم ، كرويا ، قلقاس ، قطن ، طرخون ، حناء ، ياسمين ، خطمي ، لبلاب ، ليمون ، نيلوفر ، نارنج (بَدَّل الفرنسيون مدلول النارنج وأطلقوا الاسم المفرنس على شجر البرتقال) ، بطيخ ، فستق ، زعفران ، سماق ، تمرهندي (لحق معجم لتره Littré الفرنسي ، ومعجم أصول الألفاظ الفرنسية لمؤلفه أسكار بلوخ Oscar Block) .

وألف قدماء العرب أو ترجموا كتباً قليلة في الفلاحة [1] . وكانوا يسمونها كتب الفلاحة لا كتب الزراعة . والفلّح ، على ما هو معروف في المعجمات ،

(١) نشرت في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق (الجزء الرابع من المجلد ٣٥) بحثاً بعنوان : « كتب الفلاحة العربية وألفاظها المولدة » .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الشَّقُّ والقطع ، وهو مصدر فلحتُ الأرضَ إذا شققتها للزراعة . والفلاح الأكّار ، وحرفته الفلاحة . وتسمى أيضاً الحراثة . ولكنهم ، في الاصطلاح المشهور ، لم يقصروا معنى الفلاحة على شق الأرض بالمحراث وغيره ، بل تجاوزوا هذا المعنى الى معنى الزراعة وأعمالها المختلفة . وكلمة الفلاحة بمعناها الشامل هي التي تستعمل اليوم رسمياً في الأقطار المغربية . ففي مملكة المغرب مثلاً يقال وزارة الفلاحة ، ومدرسة الفلاحة . وأما كلمة الزراعة الشائعة في قطري الجمهورية العربية ، وفي العراق وغيرها ، فاستعمالها في الحكومات وفي الكتب ، ترجيحاً على كلمة الفلاحة ، لا يتجاوز في التأريخ زمن النهضة الحديثة في القرن الماضي .

وأقدم كتاب عربي في الفلاحة عرفناه هو كتاب الفلاحة النبطية لابن وحشية ألفه سنة ٢٩١ للهجرة . وقال انه نقله عن النبطية . وهو قول مشكوك فيه . ولا يزال هذا الكتاب مخطوطاً . وله قيمة تأريخية ، وهي أنه الكتاب الوحيد الذي بحث فيه مصنفه عن الفلاحة عند قدماء الآراميين والأنباط ، واستشهد بأقوال رجال منهم ، وذكر أيضاً شيئاً من الأعمال الزراعية التي كانت تؤتى في زمنه .

وظهر في أوائل القرن الرابع الهجري كتاب اسمه كتاب الفلاحة الرومية ألفه قسطوس بن أسكورا سكينة [1] ونقله الى العربية مرجس بن هليا الرومي ، وطبع في القاهرة سنة ١٢٩٣ للهجرة . والكتابان المذكوران النبطي والرومي يشتملان على معلومات زراعية مفيدة الى جانب خرافات وأوهام كثيرة لا العلم يقرها ولا العقل . ولا دليل على أن هذين الكتابين العربيين قد عرفهما

(١) ليس قسطوس هذا قسطا بن لوقا البعلبكي المذكور غلطاً في طبعة ترجمة الكتاب . والمظنون أن المؤلف قسطوس هو المعروف عند علماء الغرب باسم قسّيانوس بَسّوس Cassianus Bassus . (يراجع بحثي المشار اليه في الحاشية سابقاً) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أوربيو القرون الوسطى ، ولا أنها كان لها تأثير في فلاحتهم . ومثل ذلك يقال في الجزء الرابع من الكتاب المخطوط المسمى (مباهج الفكر ومناهج العبر) لجمال الدين الوطواط (توفي سنة ٧١٨ هـ) ، وكتاب (جامع فوائد الملاحة في علم الفلاحة) لرياض الدين الغزي العامري من علماء القرن العاشر الهجري (وهو مخطوط) ، ومختصره المسمى عَلَم الملاحة في علم الفلاحة للشيخ عبد الغني النابلسي (١٠٥٠ — ١١٤٣ هـ) ، وقد طبع في دمشق سنة ١٢٩٩ للهجرة .

وعلينا أن ننتقل الى الأندلس لكي نجد ما كان لكتب الفلاحة العربية وللتجارب والأعمال الزراعية من تأثير في فلاحة الإسبان والأقوام المجاورة لهم . ففي الأندلس ظهر عدد من العلماء تجنبوا ذكر الأوهام والخرافات في كتبهم ، وتتبعوا الأعمال الزراعية في أراضيهم وأراضي الفلاحين ، وعكفوا على التجارب الزراعية في الحدائق والحقول . فأبو زكريا يحيى بن محمد المعروف بابن العوام الاشبيلي (توفي في نحو سنة ٥٨٠ هـ) صاحب كتاب « الفلاحة الأندلسية » المشهور والمنقول الى الاسبانية والفرنسية كان يقوم بتجاربه الزراعية على جبل الشرف جنوبي اشبيلية . ومن قبله كان عبد الرحمن بن محمد بن عبد الكبير اللخمي المعروف بابن وافد (٣٩٨ — ٤٦٧ هـ) يتولى غرس جنة المأمون بن ذي النون الشهيرة في طليطلة . وقد اختص بالفلاحة وبالمفردات الطبية . وصنف كتاباً زراعياً سماه « المجموعة » عُثر أخيراً على نسخة منه في المغرب .

وفي ذلك العصر نفسه ظهر في طليطلة أيضاً عالم زراعي اسمه عبد الله محمد ابن ابراهيم بن البصال (الفصال) فألف كتاباً عثر عليه منذ زمن قريب ، فترجم بالإسبانية ، ونشره الأستاذ مياس بيكروسا والسيد محمد عُزَيمان ، سنة ١٩٥٥ ، في معهد مولاي الحسن بتطوان . وهو من جملة الكتب التي ذكر ابن العوام أنه نقل منها الى كتابه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ومن تلك الكتب أيضاً كتاب ألفه عالم عاش في أوائل القرن السادس للهجرة اسمه محمد بن مالك التجناري ، ويعرف بالحاج الغرناطي . وكان فقيهاً وزراعياً ، ألف كتاباً وأهداه الى أمير غرناطة أبي طاهر تميم أحد أولاد يوسف ابن تاشفين . وذكر بييو كروسا أن مخطوطته التي عثر عليها ستطبع عما قريب .

ومنها كتاب أحمد بن محمد بن الحجاج من اشبيلية ، عاصر ابن واقد وابن البصال ، وكان عالماً بالنحو أيضاً ، وله كتاب « المقنع » لم ينشر . وقد أكثر ابن العوام من النقل عنه . ومنها كتاب الشيخ الحكيم ابن الخير الاشبيلي من الذين لم نعثر على ترجمتهم الخ .

ويتبين من مراجعة المعروف من هذه الكتب أن الفلاحة في الأندلس كانت قد أصبحت فناً تجرّب فيه تجارب عملية مختلفة : كتأثير بعض الأسمدة في غلات النباتات الزراعية ، وكأشكال التقليم والتطعيم ، وزراعة نباتات أجنبية في مختلف الأقاليم الزراعية ، ومكافحة بعض الأمراض والحشرات ، وإيجاد أصناف جديدة من الغلات والأثمار وغير ذلك .

وليس بعجيب ، بعد أن بلغت مدنية العرب في الأندلس المستوى الرفيع الذي يعرفه العالم ، أن يقتبس الفلاحون الاسبان من مجاوريهم العرب المفيد من الأعمال الزراعية ، وأن يزرعوا ما نقلته العرب الى الأندلس من النباتات الزراعية المشهورة ، وأن ينقل بعض الإسبانيين كتب الفلاحة العربية الى اللغة القشتالية للإفادة منها .

وهذا الرأي قد أثبته حديثاً بييكروسا الأستاذ في جامعة برشلونة في كتيب له بالإسبانية عنوان ترجمته العربية « علم الفلاحة عند المؤلفين العرب »[1] فما جاء

(١) هو Jose M.ª Millas Vallicrosa وقد ترجم اسمه بما يلي: خوسي ماريه مياس بييكروسا وذلك في كتيبه المذكور المطبوع سنة ١٩٥٧ في معهد مولاي الحسن بتطوان . وفي الترجمة ركاكة وفيها أغلاط .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في ص ٤٧ من الترجمة : « ومن الغالب أنه قد تمت في القرن الثالث عشر ..... وأن تُرجمت كتب ابن وافد وابن بصال في الفلاحة الى اللغة القشتالية . وقد وصلت الينا تلك المؤلفات في ترجمات قشتالية موزعة غفلاً » .

« ونحن نرى أن هذا العلم الفلاحي للإسبانيين المستعربين [1] قد أثر في الفلاحة إبان عصر النهضة » .

وأنهى كتيبه بقوله : [2] « وان الفلاحة العربية لم تؤثر فقط في العمل الفلاحي الإسباني بل أثرت في نفس العلم الفلاحي العربي الذي انبثق عنه القسم الهام من العلم الفلاحي الإسباني الحديث » .

هذه شهادة مستشرق اسباني أعتقد أنه لم يبلغ أحد من المستشرقين مبلغه في دراسة أمور الفلاحة عند عرب الأندلس .

ولا بد لنا بعد هذا من التنويه بما في تأريخ الأمة العربية من أعمال باهرة في شؤون الإسقاء في زمن الأمويين والخلفاء الأولين من العباسيين ، كتشييد السدود ، وفتح الأنهار ، وكري الأنهار القديمة وسد بثوقها ، وإقامة المسنيات والنواعير والقناطر ، وذلك قبل الإسلام في اليمن ، وبعد ظهور الإسلام في أنحاء كثيرة من البلاد العربية .

ويضاف الى ذلك ما جاء في الشرع الإسلامي وفي الفقه من أحكام وقواعد قويمة تتعلق باستغلال الأرض : كالخراج والعشر ، وشروط المساقاة والمزارعة ، وكري الأنهار والجداول وإصلاحها ، وحرم القنوات والآبار والأنهر ، وإحياء الأرض الموات ، الى غير ذلك مما كان له تأثير يذكر في ثبات الناس على استغلال الأرض وعمارتها .

---

(١) يشير الى عرب الأندلس .
(٢) ما جاء في الترجمة حرفياً .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولا عجب بعد ذلك كله أن أنهي حديثي هذا بجمل تنتهي بها محاضرة عنوانها « تاريخ الزراعة في بلاد العالم العربي » [١] كنت ألقيتها سنة ١٩٢٦ في ردهة المجمع العلمي العربي بدمشق ، وهي في إيجاز :

« يستخلص مما ذكرته عن الزراعة في بلادنا بعد ظهور الإسلام ، أنه حق لأجدادنا الفخر لاحتفاظهم بكثير من معارف الأقدمين الزراعية ، وإضافتهم تجاربهم وملاحظاتهم اليها ، مما لا يخلو من فوائد عملية ، ومن حقائق علمية تقرها عقولنا في هذا الزمن . فكما قيض التأريخ رجال هذه الأمة الكريمة للاحتفاظ بعلوم اليونان والرومان والفرس والهنود والأنباط في الفلسفة والطب والفلك والرياضيات وغيرها ، جعلهم أيضاً حافظين للفنون الزراعية وعاملين على توسيعها ونشرها » .

مصطفى الشهابي

(١) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق (الجزء الثالث من المجلد السابع : آذار « مارس » سنة ١٩٢٧) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net